المحاضرة الأولى: مدخل إلى مناهج البحث

في الحقيقة أنه لا وجود لفلسفة بدون منهج، ولا وجود لمنهج دون تنظير وسبق فلسفي، فتاريخ الفلسفة يكشف بحق عن هذا الارتباط الوثيق بين الفلسفة والمنهج ، إذ لم يفتأ الفلاسفة أن يتبعوا منهجا أو طرائق في النظر والبحث.

أولا: مفهوم المنهج والمنهجية (لغة واصطلاحا)

1 ـ المنهجلغة: نقصد به الطريق أو المسلك. أما**اصطلاحا:** فقد عرف معاني و مفاهيم عديدة ومتنوعة، ويعرف المنهج بأنه : فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار، إمّا من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين وتعليمهم إيّاها حين نكون بها عارفين.و يعرفه عبد الرحمن بدوي بأنه " الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم،بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل و تحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة "

2 ـ المنهجيةفهي ما يقابلها باللغة الفرنسية (Méthodologie) وهذا المفهوم مركب من كلمتينMéthodeو تعني المنهج (الطريقة) وlogieو تعني علم، ومن خلال التحديد اللغوي لمفهوم المنهجية يتجلى لنا واضحا بأن المنهجية اصطلاحا هي عبارة عن ذلك: " العلم الذي يهتم بدراسة المناهج أي أنهاعلم المناهج(علم طرق البحث العلمي)".أو بتعريف آخر تعني: " البحث في أيسر الطرق للوصول إلى المعلومة مع توفير الجهد و الوقت، وتفيدكذلك معنى ترتيب المادة المعرفية و تبويبها وفق أحكاممضبوطة لا يختلف عليها أهل الذكر".

وما يمكن أن نستنتجه هو أن المنهجية أشمل و أعم من المنهج،وما هذا الأخير سوى جزء لا يتجزأ من المنهجية.

ثانيا: العلاقة بين الفلسفة والمنهج

إن البعض منهم جعل من المنهج الفلسفي خصوصا محور بحثه واهتمامه، وخصص لذلك كتبا بعينها كما هو الحال مع روني ديكارتوفرانسيس بيكون.والمنهج ليس واحدا، بل هنالك مناهج متعددة ومختلفة كل حسب المجال الذي وظف فيه والغرض الذي شيد من أجله.وحتى يتسنى لنا توضيح العلاقة الوطيدة بين الفلسفة والمنهج بشكل ملموس فإنه كان لزاما اعطاء امثلة دالة من واقع الفلسفة وتاريخها، قصد تبيان أن الفيلسوف كان يلجأ دوما الى المنهجإن لم نقل إلى مناهج إما من أجل الكشف عن الحقيقة وحل الاشكالات، وإما من أجل إقناع الآخرين بما توصل اليه من نظريات،غير أن هذا اللجوء كان تارة مصرحا به بحيث يعمد الفيلسوف الى تبيان المنهج الذي قاده الى بلوغ معرفة ما ، وتارة يكون بشكل ضمني وبالتالي يفسح المجال لاجتهادات القارئ قصد استخراج نوعية المنهج المعتمد.

ولما كانت الفلسفة اليونانية محطة أساسية من تاريخ الفلسفة، فقد كان لزاما الوقوف عند بعض فلاسفتها أمثال: سقراط، أفلاطون،أرسطو ، فسقراط قد اعتمد عدة مناهج وأسس لها في طريقة تفلسفه، ولعل أشهرها المنهج التوليدي إذ نجده يقول في هذا الصدد: "أنا أولد الأفكار كما كانت تولد أمي النساء الحوامل" وهي طريقة في بناء المعرفة تعتمد على منهجية طرح الاسئلة.بالإضافة الى كونه اعتمد منهجا آخر عرف بمنهج التحليل اللغوي، إذ حاول سقراط في العديد من محاوراته هدم الشكوك السفسطائية وأغاليطهم بالوقوف عند دلالة العديد من المفاهيم الأخلاقية والسياسية كالعدالة والفضيلة والصداقة وغيرها من المفاهيم. في حين أن افلاطون وبالإضافة الى المناهج التي اعتمد عليها معلمه سقراط فقد اشتهر بممارسته لفن الجدل، وحدد افلاطون الجدلي بأنه: " ذلك الذي يجيد فن السؤال والجواب وبصيغة أخرى ذلك الذي يتقن فن الحوار"، كما وظف أسلوب المثال إذ نجده يشبه رجل السياسة في كتابه الجمهورية بذلك النساج الذي ينسج بين خيوط الأثواب. أما أرسطو فقد اشتهر وعرف بطريقته البرهانية وخصوصا القياس الذي يكون حسبه من مقدمات صادقة أولية وهي مقدمات تصدق بذاتها لا بغيرها كأن نقول : كل انسان فان، سقراط

انسان، سقراط فان،بحيث يتم التصديق بالنتيجة المتوصلإليها عن طريق الاقناع دون تردد ما إن نسلم بصحة المقدمة والتي يشترط صدقها منذ البداية.

أما يميز الفلسفة الحديثة عن الفلسفة اليونانية كونها جعلت من الذات الإنسانية محور اهتمامها، فأصبح الانسان سيد نفسه وسيد العالم، من هنا كانت الحاجة الماسة لدى الإنسان لإيجاد كل الوسائل المتاحة والممكنة للسيطرة على الطبيعة والتحكم فيها. وهو ما فرض على الفيلسوف أن يفكر في منهج خاص بقضاياه يحاكي به منهج العلماء، وقد كانت فلسفة ديكارت في هذا الاطار بمثابة استجابة لهذا المطلب، اذ خصص هذا الأخير كتابا بعينه تحت عنوان (مقال عن المنهج) لتبيان الخطوات الأساسية التي يتعين على كل باحث في مجال الفلسفة خاصة والمعرفة بشكل عام اتباعها قصد بلوغ الحقيقة وتحاشي الوقوع في الزلل.

لكن مع تقدم العلوم التجريبية خلال القرن التاسع عشر وسيادة النزعة الوضعية أصبح المنهج وسيلة تستخدم ضد الفلسفة، خصوصا المنهج التجريبي الذي تم توظيفه من قبل رواد الوضعية المنطقية كمعيار للفصل بين الفلسفة بوصفها كلاما فارغا ودون معنى وبين النظريات العلمية، إلا أن هذا التصور نفسه لم يصمد طويلا في وجه الانتقادات التي قدمها معاصروه ونخص بالذكر تصور كل من كارل بوبر وطوماس كون وكذا بول فيرباند الذي كان يدعو الى الفوضى المنهجية بقولته الشهيرة : "في العلم كل المناهج ممكنة".

من كل ما سبق يمكن أن نخرج باستنتاج مفاده أن العلاقة بين الفلسفة والمنهج هي علاقة وطيدة يطبعها التماهي والاتصال، إذ لايمكن للفلسفة أن تستغني عن المنهج في تبليغ نظرياتها أو في البحث والتنظير، كما لايمكن للمنهج أن يقوم دون أساس فلسفي، ولعل هذا الارتباط الوثيق بين الفلسفة والمنهج هو ما ساعد المناهج على البروز أكثر والتجدد باستمرار،و في الحين نفسه ساعد الفلسفة على التقدم،فظهور منهج جديد يساعد على بناء فلسفة جديدة، كما أن ظهور فلسفات جديدة تحتاج للتبليغ والتبسيط يؤدي بدوره الى ابتكار مناهج جديدة وملائمة لذلك.